متماثلة في وضعها المادي وثقافتها . ان كل ذلك يبعد الرواية عن الدرامية والصراع ، ولا صراع بلا صدام بين مصائر وجيوات ؛ لذا يبدو الصراع في الرواية باهتا ، وبرودة الصراع في الرواية ما هي الا انعكاس لبرودة الصراع بين هذين المعسكرين في الرواية والمجتمع معا . فالحقيقة ان البرجوازية كانت وليدة الاقطاع في علاقته بالامبريالية بعد غزوها ، ولم تنم البرجوازية في بلادنا في مواجهة الاقطاع بل كانت حفيدته ، تماما مثلما « عدنان طالب » و « توفيق خلف » حفيدا اسرة اقطاعية على الرغم من مظهرهما المتمرد . لم يحصل صراع في المجتمع بين هاتين الطبقتين ليكون مهدا للصراع الروائي ومولدا له ، ولهذا فان ما يبدو عيبا فنيا في الرواية ــ عدم وجود الصراع ــ انما هو انعكاس للواقع الموضوعي ، ان هذا منح الرواية كذلك تناسقها العام : ذلك انها تعبر عن مجموعة غير منقسمة في جوهرها . من هنا كذلك أتى الزمن الروائي خطيا متطورا نحو الامام ، ومن هنا كذلك نقول ان « صراع » « عدنان طالب » مع عمه « عماد النفوي » كان صراعا بالكلمات وليس بالفعل . والطريف ان عدنان يقتل عمه في الرواية بالكلمات ، وذلك رمز كبير الدلالة وان لم يتقصده المؤلف . ان عدنان ، وبعد ان يخرج من السجن ويحاول الانتحار مع احد اصدقائه في النهر بطريقة تكاد تكون ساخرة ، يأتي الى بيت عمه المريض بالقلب آخر الليل ويخاطبه هكذا : « قلت بعد ان وقفت واخذت اقترب منه : « كنت مريضا طوال حياتك » وانحنيت فوق وجهه المصعوق : « لكنك لم تكن ضعيفا قط ، كنت اقوى مما يجب على الرغم من مرضك . انت النصف الآخر من حياتي الذي صارعته دائما . انت الشر ، القوة التي تقول دائما لا ، الطين ، القذارة ، روث الدهور المحفوظ في ثياب حريرية خلف جدران لا تقتحم ، وسط الاوراد المريضة . انت الظلام والمرض ، انت البلاء واللعنة في حياتنا » (ص ٢٥٣) .

ان مبارزة الكلمات هذه تنتهي بموت العم الاقطاعي على يد ابن اخيه الذي يعيش من ايجارات املاكه ، اي دون عمل انتاجي . ويكون تسويغ المؤلف لحادثة الموت الفجائي بطلقات الكلمات هذه ، ان العم مريض بالقلب ، قد يكون هذا الرمز (مرض القلب) قوي الدلالة عندما يستخدم كدلالة على عجز الاقطاع ، لكنه حتما سيبدو ضعيف الدلالة وهشا في الاستعمال عندما يستخدم كذريعة لموت العم الاقطاعي بعد « بهدلة » من ابن اخ متمرد . لكن العم يموت ، ويقول « عدنان » بعد موت عمه « موت عمي حادث هام ، انه نهاية عهد بأكمله » (ص ٢٥٦) . ويقول « جميل فران » عن هذا العم: « لعله لم ينته تماما ، لكنني اعرف ان هناك حياة جديدة تتفجر ، كما لو ان الصحراء تتحول فجأة الى جنينة ، خضراء بالعشب حمراء بالزهور » (ص ٢٥٦) .

يموت العم فتغلق دائرة ، ويفتح أفق جديد ، وينتظر « جميل فران » انصرام عام الحداد ليتزوج بسلافة ابنته ، فالمسألة باتت مسألة زمن ، ووقت القضاء على الاقطاع وتخليص المجتمع وسلافة منه بات قريبا وتنتهي الرواية هكذا :« خلال الاشهر الطويلة التي تلت ــ تلت موت النفوي ــ وبينما كنا ننتظر ، وبينما امثال عدنان وحسين وتوفيق يقذفون بأنفسهم على صفوف من السيوف السياسية والاجتماعية ، كانت الحدآت والغربان تطير اسرابا ناعقة فوق غياض النخيل التي تعمر أرضا تتجدد ببطء يوما بعد يوم » (ص ٢٦٣) .

ها هو الراهن في الرواية يتغير كرمز او كانعكاس لتغير الراهن في المجتمع ، لكن كيف